نوار نيسان:
لم تكن مجرد مشاركة .. بل أكثر!

علا وادي

«الثقافة هي ما يبقى بعد أن تنسى كل ما تعلمته في المدرسة».
ألبرت أينشتاين

كيف سنبدأ؟ .. ولماذا سنبدأ؟ .. وأين سنبدأ؟ .. هل سننجح؟ من هذه التساؤلات بدأ مشوار نوار نيسان. دخلت يومها مختبر العلوم ووقفت صامتة للحظة، فقالت إحدى الطالبات: ألن نبدأ؟ فقلت: من ترغب بزيارة خيالية للبحر ... سنذهب برحلة بخيالنا للبحر. وما لبثت أن أنهيت كلامي حتى بدأ التصفيق والصراخ والهتاف، والفرحة تعالت على الملامح، وكأنهن سيخرجن من المعتقل.

رسمت على السبورة شمس البحر، وطلبت من كل طالبة كتابة ما تتخيله عن البحر، وكالمعتاد إجابات جميلة لا حصر لها، عندها بدأت حديثي عن مهرجان نوار نيسان، واستمر النقاش مدة حصتين ... أدركت يومها مدى أهمية الموضوع وجدته بالنسبة للطالبات، لحظتها بدأ التخطيط فعلاً للعمل تحت لواء مهرجان نوار نيسان. وفتحت المجال للخيال، حيث قال ألبرت أينشتاين: «الخيال أهم من المعرفة، فالمعرفة محدودة بما نعرفه الآن وما نفهمه، بينما الخيال يحتوي العالم كله، وكل ما سيتم معرفته أو فهمه إلى الأبد». ولم أحصر الطالبات في جملة من الوظائف العسكرية كما هو الحال.

في اليوم التالي تفاجأت بالطالبات اللاتي استثمرن كل الطاقات لجمع معلومات مثيرة عن قصص البحر وأساطير عن مخلوقات بحرية، وكذلك جمع الصدف والقواقع البحرية والمحار والصخور الصغيرة الملونة والحجارة، وحتى المشغولات الفنية من صدف البحر؛ مثل سفينة الريس، وهذه تباع على شاطئ البحر. وبعد جمع المواد اللازمة، تم عقد ورش تفاعلية في المكتبة لعمل إكسسوارات بحرية من الصدف ... يا لجمال ما تم صنعه: الأساور، القلادات، البراويز، الأجراس، القوارير الزجاجية بالرمل الملون، الورد الجوري بالصدف ... كانت أشياء لا تصدق.

يومها أصابتني الدهشة والريبة من أولئك الطالبات اللاتي انتفضت عقولهن لتستنبط أفكاراً نوعية وإبداعية غير مسبوقة وغير متوقعة، كانت في بعض الأحيان هادفة، وأحيانا أخرى عشوائية .. كما كلماتهن وتصرفاتهن العشوائية الجميلة التي نستمتع بها نحن الكبار.

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.

واستمرت التحضيرات لنوار نيسان ... ومع كل صباح جديد أفكار جديدة، وأبواب النقاش لم تغلق بعد ... هناك ألعاب تليماتش وجدارية ... تتصارع الأفكار والتساؤلات والتخمينات والتوقعات فتولد تصورات نهائية عائمة على سطح البحر، تتمايل مع الأمواج، تسمع ألحاناً وأنغاماً يعجز العقل عن ترجمتها وتفسيرها، فيسحبك لعمق التفكير أكثر فأكثر.

لا أستطيع وصف مهرجان نوار نيسان، ألا أنه غيمة ثقافية غير تقليدية ظللتنا من حرارة الشمس، ولم نشعر بالحر .. ودمجتنا في العمل معاً، وصبغتنا جميعا بالفكر نفسه والرؤية والتأملات نفسها، ووطدت العلاقات بين جميع المشاركين من أطفال ومعلمين ومنظمين وإعلاميين ... وقلت لو هكذا نعيش ... وحتى بعد ما تنقشع هذه الغيمة، ستتكشف عن قمم بالغة الجمال، جميع طرقها مفتوحة، ستطلق لنا ولأطفالنا العنان لبلوغ القمم.

لقد سجل هذا المهرجان جوانب كثيرة، وسلط الضوء على أمور قد نغفلها مثل البناء التسلسلي للمعرفة، والاهتمامات، والتفكير الإبداعي، والتنافس الحر، والنزاعات، والعلاقات، والمسؤولية الجماعية، والتجارب والخبرات.

وفي أثناء الفعاليات، والكل منهمك في تنفيذ النشاطات، تجولت بين جميع الزوايا، لألاحظ كل الأطفال كأنهم من نسيج متباين الألوان، يرسمون لوحة فنية رائعة يجسدون فيها تفكيرهم ومشاعرهم. منحني هذا المشهد الفرصة لفهم أعمق حول تعلم هؤلاء الصغار، والمزيد في التفكر في اهتماماتهم ومشاعرهم وانشغالاتهم.

لقد شدني الشوق والفضول الذي سكن روحي وعقلي لأتأمل جميع جوانبهم الشخصية أثناء انخراطهم وانشغالهم بتلك النشاطات، ومشغولاتهم اليدوية من إكسسوارات، وتحف، ورسومات، وتفاجأت من سرعة استجابتهم ومدى الإصرار والتحدي، وعدم اكتراثهم لا بالحر ولا الوقت، وكأنه هدف يجب تحقيقه، كما تعجبت من تمكنهم وقدرتهم على التعاطي مع موارد البحر من رمل وأصداف وصخور وحجارة، وكل ما كان، والتعاطي مع كل هذه الموارد بأسلوب تكيُّفي مرن، تحسبهم في جلسة حوار مفتوحة مع طبيعة البحر الخلابة والمخيفة في الوقت ذاته، يطلقون العنان لأنفسهم وكأنهم في مسابقة، متأكدين فيها من الفوز والنصر.

كل ذلك أوقفني عند أسئلة كانت تجول في خواطرهم قبل خاطري: لماذا لا يكون تعليمنا في المدارس هكذا؟ لماذا لا تتحول الصفحات المكتظة بالمعلومات إلى ألوان وأطياف وصور ومجسمات وأعمال فنية وألعاب؟ لماذا لا نملك أسلوباً لدعم أولئك الأطفال ولا شجاعة لترك مساحة كافية لعقولهم للقيام بالأعمال التي قد تكون مخططة وقابلة للتنفيذ وتخرج بنتائج إيجابية؟ ونحن الكبار عادة ما لا نتقبل فكرة أن الطفل «بيطلع منه»، ولديه مهارات عملية وإبداعية تتخطى كل توقعاتنا.

يومها أيقنت أني أخطأت وقلت: إن العيون التي تبصر وتتبصر في فعل وانشغال واهتمام هؤلاء الصغار هي العيون نفسها التي تعطيهم فرص الاستكشاف والتحليق، وهي العيون نفسها التي تشجع وتدعم وتساند وتخلق جيلاً يحفز على الإبداع والابتكار والخيال والتفكير المستقل.

كلما مر الوقت صدمت أكثر، وكأنني مغيبة عن هذا الواقع، ويوم المشاركة كنت أعرف أنه مهرجان ثقافي وليس علمياً بحتاً كما مهرجان أيام العلوم، وصارعت نفسي: مَن من الطالبات ستشارك؟ فسولت لي نفسي اختيار طالبات متدنيات التحصيل على عكس العادة. إذ كنا دائماً نشرك فئة الطالبات المتفوقات والمتميزات، وبمرور الوقت، ثبت لي عكس ما نرى، شعرت في هؤلاء الطالبات الحماس والإقبال الشديد والتحدي والتفاني في العمل، هذا في مرحلة التجهيز لنوار نيسان، وكأنني أيقظت الحلم النائم، ووضعت يدي على الجرح؛ أقصد الطاقة الإيجابية المغيبة لديهن .. لقد فزت .. لقد فعلتها .. لقد نجحت، هكذا صرخت بعد انتهاء مهرجان نوار نيسان .. أتدرون لماذا هتفت؟ لأنني وجدت العلاج الناجع والحل الأمثل لمعالجة ضعف الطالبات، وعرفت أن هناك طاقات مدفونة، ولكنها موجودة تحتاج منا كمعلمين وقفة، فإذا لمست الجوانب الروحية والمعنوية عند الطالب، فأنت قطعت نصف طريق العلاج. خمس طالبات لم أذكر يوماً أن نجحن في امتحاناتي، والصدمة في نهاية العام أني تفاجأت بنجاحهن جميعاً، وبدرجات لا بأس بها على الإطلاق. وهذا ما أكد عليه رابلي «يوجد في كل فرد شيء كوني جدير بالاحترام».

لعلي أذكر إحدى الطالبات (ميرفت أبو الكاس) قالت لي: لقد تعلمت الكثير من هذا المهرجان سوف أعلّم أمي وأخواتي عمل الإكسسوارات والتحف وأبيعها لأساعد أبي الذي لا يعمل.

لقد فتح لنا هذا المهرجان آفاقاً كبيرة للتبصر في توجهاتنا العملية وقراءتنا الموجهة عن المنظومة التكاملية في التعليم، وأكثر ما فرحت به في تجربتي خلال المهرجان أنني وضعت تصوراً مبدئياً عن النهج الذي أريد اتباعه مع أطفالي في البيت والمدرسة، بجانب تطوير العلاقات الإنسانية والاجتماعية لتحظى باحترام وثقة أولئك الصغار، فيحصلون على فرص تعليم وتعلم متعدد الأبعاد ومثالي، وأيضاً أدركت أنه لا يوجد مستحيل، بل كل شيء ممكن، وهناك فرص جمة غنية بانتظارنا.

وهذا النجاح الذي أتمناه، وشكراً لنوار نيسان، يا ريت كل حياتي نوار نيسان.

مدرسة بنات غزة الإعدادية «ب»